الثقافة الإسلامية

(١٣)

آداب التعامل مع الخطاب الإلهي

الإصدار الثاني

مع إضافات وتصحيح وتنقيح

محمّد مهدي الآصفي

مختارات منتقاة من محاضرات ومقالات

ومؤلفات الشيخ محمد مهدي الآصفي

- ١٣ -

❋ ❋ ❋

اسم الكتاب: .... آداب التعامل مع الخطاب الإلهي

المؤلف: .... محمّد مهدي الآصفي

الطبعة الثانية: .... ١٤٣٢ هـ ـ ٢٠١٠م

الكمية .... ٥٠٠٠ نسخة

المطبعة: ...... مطبعة مجمع أهل البيت عليهم السلام النجف الأشرف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

الأعراف: ٢٠٤

﴿ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾

الأعراف: ٥٥

تكريم الله الإنسان بالخطاب

أكرم الله تعالى الإنسان من دون سائر الجماد والنبات والحيوان بالخطاب، فخصه بخطابه، وتلقّى منه الخطاب.

ولا يشارك الإنسان في هذا التكريم شيء من الجماد والنبات والحيوان.

يقول تعالى: ﴿**لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا القرآن عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾[1].

إن هذا الخطاب الإلهي الرفيع (القرآن) لو نزل على جبال الأرض الراسيات الشامخات، وخاطبها الله تعالى بالقرآن، كما يخاطب الإنسان، لتصدعت الجبال من خشية الله... ولم تتحمل هذه الجبال على شموخها وعظمتها ما يتحمله الإنسان من خطاب الله[2].

---

(١) الحشر: ٢١.

(٢) ونقصد بذلك الخطاب التشريعي، كما يخاطب الله الإنسان. . وأما

وإلى جانب هـذا الخطـاب الـذي يتلقـاه الإنسـان مـن الله، خطاب آخر يرفعه الإنسان إلى الله في الدعاء والصلاة... وهو باب آخر من أبواب تكريم الله لعباده، فهـو تعـالى يلقـي إلـى الإنســان الخطــاب، ويتلقــى منــه الخطــاب وهــذا التكــريم المزدوج ممّا خـصَّ الله تعـالى بـه الإنسـان دون سـائر الجمـاد والنبات والحيوان.

أدب التعامل مع الخطاب الإلهي

كيف نتعامل مع الخطاب الإلهي؟ وما هو أدب التعامل مع هذا الخطاب، عندما نتلقّـى الخطـاب مـن لـدن الله تعـالى مـن كتابه الكريم، وعندما نرفع إليه تعالى الخطاب؟.

ولكـل منهـا (أدب) يجـب أن يلتـزم بـه العبـد تجـاه ربـه، عندما يستمع إلـى خطـاب ربـه، وعنـدما يرفـع إليـه عـز شـأنه الخطاب.

الخطاب التكويني فهو أمر حاصل تتحمله الجبال مثل خطاب الله تعالى للجبال في قضية داود (ع): (يا جبال أوّبي).

وهذا باب واسع لأدب العبودية لله تعالى، فان للعبودية أدب يجب أن يلتزم به العبد تجاه الله... وعلى العبد أن يتأدب بهذا الأدب، إذا تلقى الخطاب من عند الله، أو إذا رفع الخطاب إلى الله...

يقول تعالى في أدب التلقي لخطاب الله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[1]، ويقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾[2].

وعن أدب الدعاء والصلاة، إذا رفع العبد خطاب الصلاة والدعاء بين يدي رب العالمين، يقول تعالى: ﴿تَدْعُونَهُ

---

(١) الأعراف: ٢٠٤.

(٢) الإسراء: ١٠٧ـ ١٠٩.

تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً﴾[١].

﴿ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾.

﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً﴾[٢].

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾[٣].

وهذا أدب العبد بين يدي الله، إذا رفع إلى الله خطاب الدعاء والصلاة والذكر.

والأدب مع الله مصدر كثير من الخيرات والبركات في حياة الإنسان.

وإذا التزم العبد تجاه ربه تعالى بأدب العبودية نزلت عليه الرحمة والمغفرة من الله... وعكسه إذا لم يحفظ العبد أدب العبودية تجاه الله حُرِم من كثير من الخيرات والبركات

---

(١) الأنعام: ٦٣.

(٢) الأعراف: ٢٠٥.

(٣) المؤمنون: ٢.

والرحمة في حياته.

ومن أعظم ما يجب على العبد الالتزام به من الأدب بين يدي الله، الأدب عندما يتلقّى من عند الله خطاباً، أو يرفعه إلى الله.

وعلى الإنسان أن يستشعر خطابات القرآن، ونداءاته، وهتافه للمؤمنين والناس جميعا، فان القرآن نزل من لدن الله تعالى على رسوله ﷺ لدعوة الناس، وتذكيرهم، وتنبيههم، وهدايتهم.

والناس كل الناس هم المعنيون بما في هذا القرآن من دعوة، وتوجيه، وخطاب، وتذكير، وذكر، يقول تعالى: ﴿**قَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ**﴾[1]، ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾[2]، ﴿**هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ**

---

(١) الأنبياء: ١٠.

(٢) النحل: ٤٤.

لِّلْمُتَّقِينَ﴾[1].

والإحساس بهذا التكريم الإلهي للإنسان، والاستشعار بنداءات الله تعالى للإنسان في القرآن، وتخصيصه بالنداء، دون سائر الكائنات يفتح مغاليق القلوب على الله، عندما يرى الإنسان نفسه موضع خطاب الله تعالى، وندائه، وهتافه، فتمتلئ نفسه خشوعاً، وهيبة، ورهبة، ورجاءً وطعماً، وحياءً، وتعظيماً لله، وإقبالاً على فهم كلام الله، والتدبر في خطابه، والتلبية، والاستجابة، لندائه، وهتافه.

وقليلون أولئك الذين ينعمون بهذه الرؤية، ولو أن الناس قرأوا القرآن بهذا الوعي، ووعوا في قراءاتهم هذا التكريم، والتخصيص الإلهي لهم لم يشبعوا من القرآن، ولم يجدوا لذة فوق لذة تلاوة القرآن[2].

واليك تفصيل هذا الأجمال:

---

(١) آل عمران: ١٣٨.

(٢) في رحاب القرآن ١: ١٦٩ـ١٧٠.

الخطاب النازل والخطاب الصاعد

الخطاب الإلهي على نحوين:

الخطاب الصاعد من العبد إلى الله، **والخطاب النازل** من الله تعالى إلى العبد.

والخطاب الصاعد هو (الصلاة) (الدعاء) و(الذكر والتسبيح والحمد)، وهذا هو القرآن الصاعد، والخطاب النازل هو (القرآن النازل) من عند الله.

والذي يصح في الصلاة، يصح في الدعاء، فان الصلاة والدعاء في جوهرهما خطابان صاعدان من العبد إلى الله تعالى، والذي يصح في (الصلاة) و(الدعاء) يصح في قراءة القرآن، فان القرآن خطاب نازل من الله تعالى إلى عباده[١] وما يجب على العبد أن يلتزم به من الأدب في تلقي القران النازل يجب أن يلتزم به في ما يرفع إلى الله من الدعاء والصلاة والمناجاة والذكر.

---

(١) في رحاب القرآن ٥: ١٧٤.

فان الدعاء والذكر والتسبيح والحمد هو الخطاب الصاعد من لدن العبد إلى الله وهو على أنحاء، منه الصلاة، وهو الخطاب اليومي الذي يرفعه العبد إلى الله، في كل يوم عدة مرات، ليؤكد الصلة والتواصل بينه وبين ربه تبارك وتعالى، ومنه الدعاء، وهو من أفضل أبواب العلاقة والتواصل بين العبد وربه سبحانه، ومنه الذكر والحمد والتسبيح، ومنه المناجاة.

وأما القرآن النازل، فهو خطاب الله تعالى النازل إلى عباده عن طريق الوحي، وفيه يخاطب الله تعالى المؤمنين، والناس جميعاً بـ ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ**﴾ و﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ**﴾، و﴿**يا أيها الإنسان**﴾، ويخصّ الله تعالى بهذا الخطاب الإنسان دون سائر الجماد والنبات والحيوان.

تأملوا في هذه الآيات التي يخاطب بها تعالى عباده الذين آمنوا به خطاباً مباشراً، واستشعروا وقع هذه الخطابات في نفوس الذين آمنوا، وهم يسمعون خطاب الله تعالى لهم،

وتخصيص الله تعالى إياهم بالخطاب دون سائر الكائنات، وناهيك به تكريماً للذين آمنوا وتكريماً للإنسان.

وأتلوا عليكم طائفة من الخطابات من كتابه الكريم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[٢].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[٣].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ

---

(١) الصف: ١٠.

(٢) التحريم: ٦.

(٣) آل عمران: ١٠٢.

لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُواْ فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٢].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا﴾[٣].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[٤].

ويستشعر المؤمنون هذا الخطاب من لدن العزيز، الجبار، المتكبر، ذي الجلال والإكرام لعباده الذين آمنوا مباشرة، فلا يجدون لذّة في الحياة فوق هذه اللذّة، ولا يرتوون أبداً من لذّة الخطاب الإلهي إياهم بـ **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ﴾**، مهما

---

(١) الحديد: ٢٨.

(٢) المائدة: ٣٥.

(٣) الأحزاب: ٧٠.

(٤) البقرة: ٢٠٨.

أعادوها وتذوقوا منها.

والنوع الأخر من الخطاب خطاب الناس جميعاً، المؤمنين منهم وغيرهم بـ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾... وهو تكريم للناس من دون سائر خلقه في الأرض والسموات من الجماد والنبات والحيوان بتخصيصهم بالخطاب المباشر من لدن العلي العظيم عز شأنه، فاسمعوا إليه تعالى، حيث يخص عباده من الناس بخطابه الرفيع الكريم:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾(١).

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾(٢).

---

(١) النساء: ١.

(٢) الحج: ١.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[(١)].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾[(٢)].

فيستشعر الإنسان تكريم الله تعالى له، حيث يخصه بمثل هذا الخطاب المباشر، فيمتلأ حبوراً وسروراً وسعادة وشكراً لله عز وجل، على هذا التخصيص والتكريم.

وهذا هو القران النازل من لدن الله تعالى على الإنسان، في مقابل القرآن الصاعد إلى الله، وهو ما يرفعه العبد إلى ربه من صلاة ودعاء وذكر ومناجاة.

وهو باب من أبواب تكريم الله للإنسان، حيث أذن له بالخطاب، وسمع إلى خطابه وأمره بالدعاء ووعده

---

(١) الحجرات: ١٣.

(٢) فاطر: ٥.

بالاستجابة، وأنبأه بأنه يسمع ما يقول ويعلم به، ويستجيب له.

يقول تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[١]، فيأمر بالدعاء، ويعد الاستجابة، ويعلن انه السميع البصير.

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[٢]، ﴿إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٣].

وفي الدعاء يستشعر الإنسان، قبل كل شيء، وقبل أن يستجيب الله لحاجته لذة خطاب الله تعالى وكذلك الأمر في الصلاة والذكر والتسبيح.

فيقول: «اللهم أذنت لي في دعائك ومسألتك، فاسمع يا سميع مدحتي وأجِب يا رحيم دعوتي، واقل يا غفور عثرتي»[٤].

إذا تكرمت عليّ، الهي، وأذنت لي في دعائك وخطابك،

---

(١) غافر: ٦٠.

(٢) البقرة: ١٣٧.

(٣) البقرة: ١٨١.

(٤) من دعاء الافتتاح المروي عن الإمام الحجة عجل الله تعالى فرجه الشريف لليالي شهر رمضان.

فاسمع يا الهي مدحتي وثنائي، وأجب يا إلهي دعوتي ورجائي، وأقِل عثراتي.

وهذه لذة ثانية تستغرق قلب العبد ومشاعره، يعرف أن الله تعالى قد سمع دعاءه وأذن بالإجابة لدعائه، بعد أن أذن له بالدعاء وهنيئاً لمن يستشعر في الدعاء والاستجابة هذه اللذّة وتلك.

وما أروع وقوف العبد بين يدي ربه، وهو يخاطبه خطاباً مباشراً من غير حاجب ولا وسيط، بهذه اللغة السهلة التي يخاطب بها بعضنا البعض، وكما يخاطب بعضنا البعض.

«اللهم إنّي أفتتح الثناء بحمدك، وأنت مسدد للصواب بمنّك، وأيقنت أنّك أرحم الراحمين، في موضع العفو والرحمة، وأشدُّ المعاقبين في موضع النكال والنِّقِمة، وأعظم المتجبرين في موضع الكبرياء والعظمة».

يخاطب العبد ربه، فيقول: (وأنت...) كما يخاطب بعضنا البعض. ويستغفره بهذه اللغة السمحة السهلة المسترسلة:

«اللهم اغفر لي الذنوب التي تهتك العصم، اللهم اغفر لي الذنوب التي تنزل النقم، اللهم اغفر لي الذنوب التي تغير النعم، اللهم اغفر لي الذنوب التي تحبس الدعاء».

فيطلب من الله في هذا الخطاب أن يغفر له الذنوب التي تحرمه هذا الخطاب اللّذيد وتحجبه عن الدعاء «اغفر لي الذنوب التي تحبس الدعاء».

وهذا هو القران الصاعد إلى الله، ولا مشاحّة في الاصطلاح.

النمط الثالث القران النازل الصاعد

واليك نماذج من هذا الخطاب (النازل الصاعد):

﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ وهو الخطاب الذي نكرّره كل يوم عشرة مرات على أقل التقادير، وهو من هذا الخطاب النازل الصاعد، يعلّمنا فيه الله تعالى كيف نخاطبه، ونستهديه، ونوحّده في العبادة والاستعانة معاً.

وهذا الخطاب المزيج من القرآن النازل والصاعد من

أروع ما يرفعه العبد إلى الله تعالى من خطاب، فهو يخاطب الله تعالى ربه، على النهج الذي يعلّمه الله، ويرضاه منه، واتلوا عليكم نماذج أخرى من هذا الخطاب النازل الصاعد:

قال تعالى: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَارًا﴾[1].

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾[2].

﴿رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأبْرَارِ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾[3].

(١) نوح: ٢٨.
(٢) إبراهيم: ٤١.
(٣) آل عمران: ١٩٣ـ ١٩٤.

إنّ الخطاب النازل يمثل أحد وجهي العلاقة بالله تعالى، والخطاب الصاعد يمثل الشطر الآخر من العلاقة بالله، والخطاب النازل الصاعد يمثّل وجهي العلاقة بالله تعالى، وهو أهم شيء في حياة الإنسان، على الإطلاق، ومن دون استثناء.

***

بركات الخطاب النازل والصاعد في حياة الإنسان

للخطاب الإلهي النازل والصاعد بركات عظيمة في حياة الإنسان، فهما وجهان لعلاقة الإنسان بالله تعالى، وعلاقة الإنسان بالله هي كل قيمة الإنسان عند الله.

ونقرأ في القران الكريم عن آثار وبركات الخطاب الإلهي النازل: ﴿**وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ**﴾[1].

شفاء لإمراض القلوب ورحمة للناس لدنياهم وآخرتهم:

---

(١) الإسراء: ٨٢.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[١].

هذا الخطاب موعظة من الله للإنسان، وشفاء للإمراض التي تصيب الناس في صدورهم وقلوبهم، وهدى للناس في مسيرة الحياة الشاقّة المتعبة الطويلة.

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾[٢].

هذا الخطاب أقوم السبل والمسالك في حياة الناس.

وأمام الناس مسالك وسبل كثيرة في الحياة... أقومها وأرشدها ما يرسمه خطاب الله للإنسان.

هذا عن بركات الخطاب النازل.

---

(١) يونس: ٥٧.

(٢) الإسراء: ٩.

وللخطاب الصاعد من (الصلاة) و(الدعاء) و(الذكر) أيضاً بركات كثيرة في حياة الإنسان.

أولها خطاب الصلاة

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ﴾[١]، إن الصلاة تحصّن الإنسان من الفحشاء والمنكر.

﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾[٢].

إن الصلاة حسنة، ليس فوقها حسنة، تذهب السيئات، وتغطيها وتبطلها.

يقول تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾[٣].

---

(١) العنكبوت: ٤٥.

(٢) هود: ١١٤.

(٣) البقرة: ٤٥.

إن الصبر والصلاة هما جناحا الإنسان في الحركة، ومن دونهما لا يقوى على مواجهة متاعب الحياة وتعقيداتها الكثيرة، ولا يستطيع أن يشق طريقه في زحمة الحياة.

والصلاة كبيرة صعبة على عامة الناس، إلا من كان من الخاشعين، فإنهم يقبلون بكل قلوبهم على الله تعالى في صلواتهم.

ومن بركات الصلاة في حياة الإنسان الخوف، والرهبة، والشوق إلى الله، والأنس بالله، وحب الله، والثقة بالله، وهذه الآثار تتحقق لدى الإنسان إذا وعى حضوره في الصلاة بين يدي الله تعالى، وإذا شعر الإنسان في الصلاة بالمثول بين يدي الله وامتلأت نفسه بجلال الله وجماله وحضور الله... وعندئذ فلا يمكن أن ينتابه ذهول أو غفلة أو شرود في صلاته.

وإنما يغيب قلب المصلي عن الخطاب الصاعد في الصلاة والدعاء والذكر، أو عن الخطاب النازل عند قراءة القرآن،

عندما لا يكون واعياً لحضور الله ولا يكون عارفاً بجلاله وجماله.

وخطاب الدعاء هو المفردة الثانية من الخطاب الصاعد إلى الله. يقول تعالى: ﴿**وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ**﴾[1].

والدعاء أحد طرفي المعادلة، والطرف الآخر للمعادلة الاستجابة: ﴿**ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾، وهي من أعجب المعادلات في هذا الكون العريض، مع كل دعاء استجابة، إلا أن لا يكون الدعاء دعاء، بل لقلقة لسان، أو لا يكون في مصلحة العبد الإجابة فيعوّضه الله تعالى بغير حاجته من وجوه الرحمة.

---

(١) غافر: ٦٠.

ويقول تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ﴾[١].

إن الدعاء أفضل تبلور لعلاقة الإنسان بالله... وعلاقة الإنسان بالله، في وجهها النازل والصاعد، هي كل قيمة الإنسان عند الله، ولا يعبؤ الله بأحد من عباده إلا بقدر ما يقبل عليه بوجهه في الدعاء.

والمفردة الثالثة للخطاب الصاعد ذكر الله، وهو من أعظم منازل الرحمة والبركة في حياة الإنسان.

يقول تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[٢].

وهو معادلة عجيبة أخرى في حياة الإنسان، وطرفا هذه المعادلة هو ذكر العبد لربه، وذكر الله تعالى لعبده.

والذكر يعادل البصيرة في حياة الإنسان، وهذه معادلة أخرى في الذكر ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ

(١) الفرقان: ٧٧.

(٢) البقرة: ١٥٢.

الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾(١).

إنَّ تذكّر الله يعادل في هذه الآية البصيرة ﴿**فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ**﴾. . ومن يتذكر الله تعالى عندما يمسّه الشيطان بالشرّ يرزقه الله بصيرة ونوراً يطرد الشيطان. إن ذكر الله يهب القلوب والصدور والعقول البصيرة واليقين.

كيف نتعامل مع الخطابات الصاعدة والنازلة؟

إنّ وعي حضور الله هو مفتاح استشعار الخطاب الإلهي، وهو مفتاح كنوز الصلاة.

فإذا وعى الإنسان حضور الله تعالى المطلق، والذي لا يشوبه غياب. . يستشعر بقوة خطاب الله تعالى (الصاعد والنازل)، واستشعار خطاب الله تعالى يشد الإنسان المؤمن بخطاب (الصلاة) و(الدعاء) و(القرآن).

فكيف نتلقى ونتعامل مع هذين الخطابين: الخطاب

---

(١) الأعراف: ٢٠١.

الصاعد والخطاب النازل، وما هي العوامل التي تشعر الإنسان بالخطاب الإلهي في (الصلاة) و(الدعاء) و(القرآن) وكيف يستشعر العبد حضور الله تعالى في الخطابين الصاعد والنازل؟.

الإجابة على هذه الأسئلة من أهم النقاط العملية لهذا البحث الخطير وفيما يلي نتحدث إن شاء الله عن أهم الشروط الضرورية للتعامل مع الخطاب الإلهي الصاعد والنازل:

الشرط الأول: تجريد النفس وطهارتها

لكي يتلقى الإنسان الخطاب الإلهي لابد أولاً، قبل كل شيء، من تجريد النفس، لأن الخطاب الإلهي لا ينطلق صاعداً من إناء غير طاهر ولا يحلّ نازلاً في إناء غير طاهر.

والإناء الذي يحلّ فيه الخطاب الإلهي النازل من الله، ويصعد منه الخطاب إلى الله، لابد أن يكون إناءً طاهراً، أن الإناء الطاهر فقط هو الذي يحلّ فيه خطاب الله النازل

ويصدر منه الخطاب إلى الله.

وليس كل أحد يستحق هذا التكريم العظيم، ولا يناله إلا ذو حظ عظيم، وهو صعب وشاق إلا على الخاشعين.

يقول تعالى:

﴿وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾[١]، والنفوس غير الخاشعة لا تستطيع أن تُقبل بالصلاة على الله.

ويقول تعالى: **﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾**[٢]، إنّ إقامة الصلاة لا تكون إلا عند المخلصين الحنفاء.

الشرط الثاني: الحضور والذكر

كما أن (الذكر) و(الغفلة) حالتان متقابلتان، كذلك

---

(١) البقرة: ٤٥.

(٢) الأعراف: ٢٩.

(حضور القلب) و(غياب القلب)حالتان متقابلتان، ولا نكاد أن نفهم أحدهما من دون الآخر.

والتعامل مع الخطاب الإلهي لا يكون إلا عند الذكر والحضور، ومن سوء الأدب أن يخاطب الإنسان ربّه، أو يتلقّى خطابه، وهو شارد القلب، وغائب عن خطاب الله، فلا يدري ما يقول، ولا ما يسمع وما يتلقىّ من عند الله.

والخطاب الصاعد والنازل يعمّقان في نفس المؤمن حالتين:

الحالة الأولى:

شهود الجمال وشهود حضوره وسلطانه.

والحالة الثانية:

إيمان العبد بشهود الله له، لظاهره وباطنه، وسره وعلنه، وإذا لم يستشعر العبد الحالة الأولى وهي شهود جلال الله وجماله وحضوره الدائم المطلق، بقدر ما يتيسر للإنسان المحدود من الشهود، فلا بد أن يتنزل إلى الدرجة الثانية،

وهي الإيمان بشهود الله تعالى له، لسرّه وعلنه وظاهره وباطنه، لأنها من شروط الإيمان، فان الكون محضر لله تعالى، ولا يغيب عنه سبحانه وتعالى، ولا تخفى عليه من خافية... وهو معنى الحديث الشريف «اعبد الله [خف الله] كأنك تراه وان لم تكن تراه فانه يراك»[١].

وفي مقابل الغياب والشرود، حضور القلب، وهو حالة الانتباه والذكر والانشداد إلى الله تعالى، بخلاف حالة الغياب التي هي حالة النسيان والشرود.

وسبب الغفلة والغياب هو شرود القلب والفكر عن خطاب الله.

والشرود والغفلة هما آفة الإنسان في التعامل مع الخطاب الإلهي.

والصلاة حضور عند الله، وهذا الحضور لا يتحقق بصورته الشفّافة الكاملة إلا إذا كان يساوي الغياب والانقطاع

(١) في رحاب القرآن ١: ١٤٧.

من أي شيء آخر غير الله في الصلاة... غياب كامل عن الدنيا وعن كلّ علاقة مع الناس، وعن الأسرة.

ولذلك إذا انهينا الصلاة نعود إلى دنيانا من جديد، فنسلّم ثلاث تسليمات:

السلام الأول على رسول الله ﷺ فهو الذي علمنا هذه الرحلة من (الأنا) و(الغير) و(الدنيا) إلى الله... فنسلم عليه أولاً: (السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته).

ثم نسلم على أنفسنا ثانياً، فان هذا الغياب غياب عن أنفسنا أيضاً، وعن الآخرين، ونعود بعد الانتهاء من الصلاة إلى أنفسنا من جديد ونسلّم عليها (السلام علينا)، ثم نسلّم ثالثاً على الآخرين من عباد الله الصالحين (وعلى عباد الله الصالحين) ثم نعمم السلام عليهم ورحمة الله وبركاته.

ما هو الغياب عن الأنا؟

إن العروج إلى الله تعالى في الصلاة رحلة صعبة، وفي نفس الوقت شيّقة... وفي هذه الرحلة لا ينبغي أن يأخذ

الإنسان معه شيئاً مما يتعلق به في هذه الدنيا من هموم هذه الدنيا وتعلقاتها، فهي تفسد عليه هذه الرحلة، ولا أن يأخذ معه (الأنا)، إن شرط هذه الرحلة أن يتجرد من (الدنيا) وفتنها، ويتجرد من (الهوى) و(الأنا)، ليخفّ إلى الله، وهذا هو معنى الغياب عن الأنا، ومعنى السلام على الأنا عند العودة من هذه الرحلة (السلام علينا).

عوامل تحضير القلب

تقدم أن الذكر في مقابل الغفلة، والحضور في مقابل الغياب.

والتعامل مع الخطاب الإلهي لا يكون إلا عند الذكر والحضور، ومن سوء الأدب أن يخاطب الإنسان الله أو يتلقّى خطابه وهو شارد القلب وغائب عن خطاب الله، فلا يدري ما يقول، او ما يلقى إليه من القرآن من جانب الله تعالى.

وأهم المناهج لتحضير القلب ثلاث:

(التفريغ)، (التحصين)، (استشعار الخطاب الإلهي).

واليك تفصيل هذه المناهج الثلاثة:

المنهج الأول: (التفريغ):

وهو منهج مألوف ومعروف عند أرباب العرفان.

وأساس هذا المنهج أن قلب الإنسان إناء واحد لا يتسع لذكرين واهتمامين في وقت واحد، يقول تعالى: ﴿**مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ**﴾[١].

فإذا كان القلب مشغولاً بشواغل الدنيا فلا يستطيع أن ينصرف إلى ذكر الله تعالى، وتبقى هذه الشواغل تلاحقه، وتطارده حتى في صلاته، وهذه الشواغل على نحوين:

شواغل خارجية، وأخرى داخل النفس، والثانية أشقّ من الأولى.

أما الشواغل الخارجية، فهي ما يحيط الإنسان ويشغل باله مثل زخرفة مكان المصلي ونقوش الفرش الذي يصلي عليه

---

(١) الأحزاب: ٤.

الإنسان.

ولذلك وردت الكراهة في زخرفة المساجد، واستقبال الصورة والرسوم في الصلاة، وكان الصالحون يكرهون الصلاة في المواضع التي توجد فيها الصور والنقوش والزخارف.

وقد روي أن أبا طلحة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صلّى في بستان له فأعجبه طير حشر بين أغصان شجر كثيفة الأغصان، يلتمس مخرجا منها فلا يجده، فاتبعه بنظره ساعة ثم لم يَدرِ كم صلّى؟، فذكر ذلك لرسول الله، وتصدق ببستانه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليتخلص من هذا الشاغل الذي شغله في صلاته[1].

وكان رسول الله يكره أن يصلي في الثوب الملوّن.

روي أن أبا جهم أهدى قميصاً عليها علم إلى رسول الله وصلى بها رسول الله ثم نزعها، وقال اذهبوا بها إلى أبي

(١) رواها مالك في الموطأ ١: ٩٨ ح٦٩.

جهم[1].

وروي انه اهدي إليه ﷺ ثوب ملون، فصلى فيه ثم ردّه إلى صاحبه.

وكان رسول الله ﷺ قد احتذى نعلاً فأعجبه حسنها فسجد فقال: تواضعت لربي عز وجل كي لا يمقتني ثم خرج فدفعها إلى أول سائل لقيه[2]، ثم أمر علياً عليه السلام أن يشتري له نعلين جرداوين.

وأهمّ من الشواغل الخارجية الشواغل الداخلية في النفس، وهي الاهتمامات التي تشغل المصلي عن صلاته وذكره، وتشتتّ باله، وتكدّر صفاء نفسه، وترهقه كالطمع والحسد والجشع وطول الأمل، وكل ذلك عوامل تعيق الإنسان عن صلاته، وتشغله عنها.

---

(١) أخرجها البخاري في صحيحه ١: ٩٨ و١٨٣ و٧: ٤١.
(٢) ذكره المناوي في فيض القدير ٢: ٣٦٨.

المنهج الثاني: التحصين:

والمنهج الثاني لمكافحة الشرود هو تحصين النفس.

فان السبب في هجوم الأفكار والخواطر على قلب المصلي أثناء الصلاة، والسبب في شرود القلب عن الصلاة هو عدم وجود تحصينات للقلب... كأي هجوم آخر يقوم به العدو على مراكزنا ومعاقلنا.

والقلب أعظم مركز ومعقل لذكر الله، فإذا كان القلب مزوداً بتحصينات مكافئة لهجوم العدو، قاوم هذا الهجوم، وأحبطه وأبطله، وإذا كان القلب ضعيفاً في مواجهة العدو يتعرض لا محالة لغزو واسع من ناحية الأفكار والخواطر التي تهجم عليه.

وهذه آفة واسعة يكثر ابتلاء الناس بها في صلاتهم، وقلّما يخلو منها إنسان، وليس علاج هذا الابتلاء في الاعتزال عن الحياة ونشاطاتها وساحاتها، وإنما علاجه في تحصين القلب.

فأن القلب إذا كان ضعيفاً قد يشغله ما لا قيمة له من متاع الدنيا وزينتها، كالساعة التي على معصمه، والقلم الذي في

بيده، والقميص الذي يرتديه.

وإذا كان القلب قوياً، محصناً، ضد هذه الهجمات، فلا يخترقه دنيا هارون العباسيّ وملكه وسلطانه.

تقول عائشة: كان رسول الله ﷺ بيننا نحدثه ويحدثنا، فإذا حان وقت الصلاة فكأنه لا يعرفنا ولا نعرفه[١].

فالعلاج إذن في تحصين القلب، ووقايته أولاً، ثم في تجنب مغريات الدنيا وإثاراتها، ما أمكن الإنسان ذلك، حتى لا يفقد دوره في خلافة الله على وجه الأرض.

وقد كان رسول الله ﷺ ينعزل بالصلاة عن كل ما عدى الله حتى هموم الدعوة والرسالة والوسط الاجتماعي انعزالاً كاملاً.

إنّ تحصيل العازل النفسي صعب... ولكن بعد التحصيل تكون ممارسته سهلة مريحة بدون عناء، ويصبح صاحبه ذا

---

(١) أسرار الصلاة للشهيد الثاني: ١٨ و ٢٣ ومستدرك الوسائل ١: ٢٦٤.

كفاءة ومَلَكة في تحصين نفسه، كما أن تحصيل الكفاءات والمهارات الفنية يكون شاقاً ابتداءً، فإذا كسبها الإنسان يسهل عليه استخدامها ويوفّر له جهداً وعناءً كثيراً.

وكما أن المهارات البدنية يكون تحصيلها في فترة الشباب أسهل من الفترات المتأخرة من العمر كذلك المهارات النفسية والملكات النفسية.

يقال أن أبا العباس الجواليقي كان يبيع الجواليق (الخُرج) في بدء أمره، فباع بعض ما عنده من الجوالق لشخص نسيئة، ولم يكتب اسمه، فحاول أن يتذكره فلم يقدر على ذلك.

فلما وقف للصلاة تذكّر الشخص الذي باعه عليه في الصلاة فذكر ذلك لغلام كان يعمل معه في محله، فقال له الغلام: وكيف تذكّرته؟ فقال: في الصلاة، فقال له الغلام: كنت تصلي يا أبا العباس أم تبحث عن الجوالق؟ فتنبه أبو العباس إلى خطئه، وندم على فعله، وباع الجوالق والمحل وتفرغ للعبادة، وعرف بالصلاح والتقوى.

ونحن نثمّن عمل أبي العباس الجواليقي، ولكننا نقول: إن

الإسلام يريد منا أن نبقى في السوق وفي الأسرة ولأنفسنا وفي المجتمع، والإسلام لا يريد منا هدم السوق والأسرة والعلاقات الاجتماعية.

ولكن يريد منا أمرين: أن نعزل أنفسنا أوّلاً عن هذه الهموم جميعاً إذا دخلنا المساجد، ولا نسمح بأن تطاردنا الدنيا إلى داخل المسجد، ويريدنا ثانياً أن نجعل هذه الهموم في امتداد همنا الأكبر وهو التوحيد والإخلاص.

والمنهج الصحيح للتفرغ للصلاة ليس في أن نهدم بيوتنا وتجارتنا وعلاقاتنا، وإنما أن نتمكن من استخدام العازل النفسي، وهذا العازل يحقق ذلك إذا كانت الصلاة همنا الأكبر، كما أن أي هم كبير يعزل الإنسان عن الهموم الصغيرة.

وهذه الوقاية والحصانة هو معنى (الزهد) الذي يرغّب إليه الإسلام.

فان الزهد هو أن لا تستغرق الدنيا اهتمامات الإنسان

وقلبه، وليس أن لا تنال يده من الدنيا شيئاً.

فقد يملك الإنسان من الدنيا الكثير، عن حلال دون أن تستغرق الدنيا قلبه واهتمامه، وبين هذا وذاك فرق.

والذي يدعوا إليه الإسلام هو الزهد بهذا المعنى.

ومع ذلك فان رسول الله ﷺ كان يكره التعرض للدنيا ومتاعها وطيباتها عن حلال، ولا يحرمه، إمعاناً في الاحتياط لنفسه من هذا الابتلاء الذي يشغل الإنسان عن الله تعالى وذكره، ويصيب قلب الإنسان بالشرود والغفلة.

ومن عجب أن تحصين القلب يتم بالذكر والتقوى، والذكر هو أحد العاملين الرئيسيين في تحصين القلب، فيكون تحصين القلب بالذكر من اجل الذكر ومن اجل التخلص من الغفلة عن الذكر، والذكر يؤدي إلى الذكر.

المنهج الثالث: استشعار الخطاب الإلهي:

عندما ننظر في كتاب أو نسمع إلى حديث قد نصاب بشرود الذهن، ولكن عندما نخاطب أحداً ونتلقى خطاباً من

أحد بالمواجهة لا نصاب بالشرود، وهذه أربع حالات، يصيبنا الشرود في الحالتين الأولين دون الأخيرتين، والسبب في ذلك هو وجود عامل الخطاب في الأخريين دون الأوليين، فعندما يخاطب الإنسان أحداً يشّده الخطاب إلى المخاطَب (بالفتح) وكذلك عندما يتلقى من أحد خطاباً يشدّه الخطاب إلى المخاطِب (بالكسر) من دون تكلف ولا معاناة ولا حاجة إلى التركيز.

وهذه حالة مشهودة ومحسوسة، فلا نحتاج في تلقّي الخطاب إلى معاناة في التركيز، ولا تأمّل في المفردات، وقد نلقي على الآخرين خطاباً يطول أو يقصر، بترسّل كامل، دون تكلف ومعاناة في التركيز في المفردات، وفي فهم الكلمات، وكلنا يعرف هذه الحالة ونشهدها في الخطاب الذي نوجهّه إلى الآخرين، وفيما نتلقاه من خطاب الآخرين أي في (الخطاب الذي نوجهه والخطاب الذي نستقبله).

ففي حالة الخطاب ينشدُّ الإنسان إلى (المخاطَب)

و(المخاطِب)، بسبب عامل الخطاب، إذن عامل (الخطاب) من أهم عوامل انشداد المخاطَب والمخاطِب.

واستشعار الخطاب من الله، وإلى الله من شأنه أن يشدّ الإنسان إلى الخطاب من دون تكلف ومعاناة.

والصلاة خطاب صاعد من العبد إلى الله، وما من خطاب يلذٌّ للمؤمنين، كما يلذّ له الخطاب والحديث عندما يرفعه إلى الله تعالى أو يتلقاه منه تعالى.

وما من شيء ألذ إلى قلب المؤمن من أن يصغي إلى خطاب الله تعالى له في القرآن.

وقد روي عن بعض الصالحين انه كان يقول قرأت القرآن حتى أحسست أن الله تعالى يخاطبني به فما وجدت شيئاً ألذ إلى قلبي منه، فلا أكاد اشبع منه، ولا اصبر على مفارقته.

وليس للقلوب المؤمنة لذة اكبر من أن تصغي إلى خطاب الله تعالى المباشر لها، وهل هناك لذة للنفوس المؤمنة أعظم من أن تتلقّى من عند الله تعالى خطاباً مباشراً مثل قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾(١).

وقوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾**(٢).

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾(٣).

فإذا استشعر المؤمن خطاب الله تعالى له في (القرآن)، وخطابه له تعالى في (الصلاة) و(الدعاء) لم يصرفه عنه شيء، ولا يجد أمراً ألذ إلى قلبه وعقله منه، ولا يعيقه من الانشداد به شيء(٤).

---

(١) البقرة: ٢٠٨.

(٢) البقرة: ٢٥٤.

(٣) آل عمران: ١٠٢.

(٤) في رحاب القرآن ٥: ١٧٢ـ ١٧٥.

عوامل الإحساس بالخطاب الإلهي:

والآن نتساءل ما هي العوامل التي تشعر الإنسان بالخطاب الإلهي في(الصلاة) و(الدعاء) وقراءة (القرآن).

ونحن هنا نشير إلى عامل واحد فقط من عوامل الإحساس بالخطاب الإلهي، وذلك هو وعي حضور الله تعالى.

والأيمان بحضور الله تعالى من شروط الأيمان بالله، ولكن وعي الحضور الإلهي من مراتب الأيمان العالية، وقليل هم أولئك الذي يستشعرون حضور الله بشكل دائم في الخلوات والجلوات، فإذا استشعر الإنسان حضور الله تعالى وجد في الخطاب الإلهي لذة لا تفوقه لذة، ولا يكاد يصبر عليها.

وأي لذة أعظم من أن يخاطب الإنسان رب العالمين بضمير الخطاب الحاضر ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾، أو يصغي إلى خطاب الله تعالى له: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا هَلْ**

أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(١).

وإنما يغيب قلب المصلي عن هذا الخطاب الصاعد إلى الله أو ذلك الخطاب النازل من عند الله عندما لا يعي بعمق وقوة حضور الله تعالى.

وقد أولى القرآن هذه المسألة اهتماماً كبيراً فوق العادة، وجعلها من أسس بناء الشخصية الإيمانية ومن أهم مقومات التربية الروحية.

رزقنا الله تعالى هذا الوعي وتلك اللذّة التي هي قرة عيون المؤمنين.

يقول تعالى: ﴿**وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**﴾(٢)، وهو من أرق التعبير وألطفه في الحضور الإلهي، وفي تحسيس الإنسان بحضور الله.

يقول تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاّ هُوَ رَابِعُهُمْ**

---

(١) الصف: ١٠.

(٢) الأنفال: ٢٤.

وَلا خَمْسَةٍ إِلاّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[1].

(١) المجادلة/ ٧.

الفهرس